مقاصدنا في حياتنا القومية

القوة والحرية

بقلم الدكتور شكري فيصل

الدعوة التي تعلو كل دعوة اخرى في عالمنا العربي اليوم هي هذه الدعوة الى القوة ، في كل مجالات الحيـــاة المادية والمعنوية .. إلى تحصين مجتمعاتنا وتحصين حدودنا .. إلى إيقاظ روح المجنّد في المواطن العربي جندياً كان ام عاملاً ام استاذاً .. إن كل مناحي حياتنا الحاضرة ثغرات يستطيع ان ينفـذ منها اعداؤنا الاقوياء ، في السياسة والاقتصاد ، في العلم والفن ، في العمران والاجتماع .. ومن مهامنا الرئيسية ان ننقذ وطننا الكبير واوطاننا الصغرى من هذه الاخطار التي تزحف اليها من هنا وهناك .

إن نداء القوة ، الذي يتمثل في هذه المراحـل المتتالية من اليقظة والتنبه والوعي وعمق الادراك والعمل ، كان اثراً بعيداً لحياة هذا الشعب العربي القلقة منذ اوائل هذا القرن ... وكان اثراً قريباً لهذه الكارثة التي اصابته فأنفذته كما يصيب الرمـــح المسموم جنبم البطل فيُنْفِذُه .. ولقد حملنا على اكتافنا وفي قلوبنا هذه الكارثة كما يحمل البطل رمحه ثم يسعى به الى قاتله .. يعمل ليردّ اليـه الضربة بأقوى منها .. ومن بين أيدينا ومن خلفنا اشباح الشهداء وأطياف المغاوير الذين تبعثرت اشلاؤهم على ثرى فلسطين ولوّنت دماؤهم ازهارها .. وفي اذهاننـــا وآذاننا هذه الاصداء التي تحوّم كل ليل .. تقول : اسقوني

ونحن ، كلّ عربي في كل قطر ، نؤمن ان كل إراداتنا يجب ان تلتقي في الاستجابة لهذه الاصداء والثأر لها .. وان كل قواتنا يجب ان تسخّر لهذا الثأر الذي يملأ كياننا الحاضر لأن كياننا المقبل لن يقوم إلا به ولن ينبني إلا عليه .. ومن اجل ذلك نستسيغ كل حرمان ، ونتقبل كل تضحية .. ومن اجل ذلك نرتضي ان نجانب كل ترف وان نحتمل كل شظف وان نتلقى كل كيد .. إن الحياة عندنا ليست حياة الحاضر ولكنها القدر الذي يمكن ان يهبه هذا الحاضر للمستقبل ..

غير اننا حين نستجيب إلى هذا النداء الغالي ، نداء القوة ، وحين نلتقي حوله نسخّر له قوانا ونهب له نفوسنا ، نؤمن ان هذا الالتقاء يجب ان يكون التقاءً حراً .. التقـــاء ارادات واعية مطلقة مدركة ، تندفع بهذا الفيض المتدفق الداخلي الذي يجيش في اعماقها .. وان هذا التسخير يجب ان يكون تسخيراً ذاتياً ينبع من داخل ولا يأتي من خارج ؛ تثيره النفس وتخلق الاحساس به ، ولكنها لا تشعر بظله من فوقها ولا باشباحـه من حواليها .. وان هذه الهبة ، هبة نفوسنا لهـذه الأمجاد التي نسعى اليها ، انما هي محض هبة ، فيها كل الايمان بانها حق وواجب من نحو وفيها كل طلاقة الهبة وعفويتها وطواعيتها من نحو آخر .

إن نداء القوة يجب ان يخالطه دائمـــاً صوت الحرية ، وإذا كنا نؤمن بالقوة كأول مفهوم يجب ان يسود حياتنا المـادية والمعنوية فاننا نؤمن كذلك ان هذه القوة هي قوة الفرد الحرّ الذي يقدّم بكلتا يديه ، رافع الرأس ، رضيّ النفس ، طروب الضمير — كل ما يجب ان يقدمه في بشاشة وإسماح ..

★

وهذه الحرية التي نؤمن بها ليست غريبة عن القوة التي ننشدها ولا بعيدة عنها .. إنها هي هي .. هي التي تفجّر فينـا مكامن قوانا ، وتطلق ما استسرّ من إبداعنا ، وتقوم بهذا التفاعـل الغنيّ الخصب بيننا وبين الحياة .. ومن غير الحرية نعبر الطريق بين الولادة والموت دون ان يكون بيننا وبينه أي تجاوب .. نعبره بسذاجة الصبيّ المغلق ، وتصلّب الجنـدي في الصف ، لا يملك ان ينظر الى امام او وراء .. لا يستمتـع ولا ينتج ، لا يأخذ ولا يعطي .. ولكن الحرية هي التي تمدّ ساحـة الرؤية امامنا وتوسّع اطرافها ، وهي التي تنقلنا عبر الاجـواء البعيدة نفيد منها ونفيدها ، نعطيها ونأخذ منها ، نتفاعل بها ونتفاعـل معها .. هي التي تجعل وجودنا الداخلي الصغير يضم هذا الوجود الخارجي الكبـير ويطويه .. إنه حيث تكون الحرية المبصرة تكون القوة القادرة .. قوة لا تتألف من جمع الارقام واحداً بعد واحد ، بل من تضامّها وتوالبها في سلسلة هندسية لانهاية لها .

وإن ضمائرنا هي التي يجب ان تتنفس في هـذه الحرية وان تنمو في ظلالها .. فالضمير الحرّ هو القـوة التي لا يتطرق اليها البلى ولا يدركها الفناء .. هو هذه القوة التي لا تني تتألق عند الانسان نوراً من بين يديه ومن حوله ، وهو بهذا النور يسير .

★

إنهما في الظاهر مفهومان : الحرية والقوة .. يتجادل حولهما هؤلاء واولئك .. لا يرون ان في وسع احدهما ان يقوم إلا ان يعطّل الآخر أو يجلّله .. ولكن قوميتنا التي نؤمن بهـا ونعمل لها لا تحتاج ان تعاني هذه المشكلة ، ولا تواجه هـذا الازدواج الخاطىء .. ان اصالتها في نفوسنا وفي تاريخنا .. في الواقع وفي الماضي .. وإن حتميتها في المستقبل .. إن كل اولئك يجعل من الحرية والقوة عندنا مفهوماً واحداً .. وجهين لحقيقة واحدة ، تجليل احدهما لا يساعد على قيام الآخر ولكنه قد يذهب به .

دمشق

شكري فيصل